أسس الحكم الشوري الموسع في الإسلام

الحلقة التاسعة عشرة

نظام الحكم الأثيني (I)

2) ألإرهاصات الحضارية في المجتمع الأثيني

مثلت **أثينا** إحدى معالم الحضارةِ اليونانيةِ.

لكن، وعلى خلاف أكثر الغربيين، الذين يصورون، ولأسبابِ إيديولوجيةِ مضمرة، بروز هذه المدينة على مسرح الأحداث التاريخية العالميةِ، وكأنها طفرة انبثقت من خارج التاريخ، وعلى غير مثال مسبوق، وبمعزل عن المؤثرات الحضارية أو الثقافية مع جوارها الإقليمي الطبيعي، فسنخالفهم نحن هنا، لذات الأسباب الإيديولوجية، وللدليل القاطع على متحها بغزارة من حضارتي مصر ووادي الرافدين، وندرسها ضمن سياقها التاريخي وحيزها الجغرافي الطبيعي، خصوصاً وأن بعض أساطين الفكر اليوناني، من فلاسفة ومؤرخين لم يجدوا غضاضة في الاعتراف بما بدينِون به من جميل للحضاراتِ المشرقيةِ المجاورة، من ناحية المعرفةِ والإنجازاتِ.

أضف إلى ذلك، أن الكثير من البيوتات الأثينية الغنية كان لها نشاط تجاري ملحوظ مع كل من الإمبراطوريتين: **الآشوريةِ** و**المصرية**، كما وأن جاليات كاملة من اليونانيين استقرت وبنت لها مستعمرات على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، في الوقت الذي اشتغل فيه الكثير من اليونانيين الأفاقين في جيوشِ هاتين الإمبراطوريتين كجنود ومرتزقة، ممهدين بهذا الاحتكاك والتواصل لدُخُول اليونان إلى مرحلةِ الحضارةِ العالميةِ بَعْدَ قرنين فقط من التمدرس

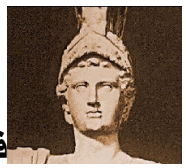

على يدي هذين القطبين الحضاريين، مع قدوم **الإسكندر المقدوني** في القرن الثالث قبل الميلاد.

كان تعداد سكان مدينة **أثينا** في القرن الخامس قبل الميلاد حوالي 250000 شخص. وهي كثافة سكانية نستنبط منها أن عدد المواطنين الأحرار البالغين المنحدرين من أصول أثينية والذين يتمتعون بحق الانتخاب كان محصوراً بين 30.000 إلى 45.000 مواطنا.

هذه المواطنة، التي ضن بها الأثينيون على الأغيار، كانت تمنح في مناسباتِ نادرةٍ جداً إلى بعض الأفراد من غير الأصول الأثينية، لكن فقط بعد موافقةِ "**الجمعيةِ العمومية**"، وهي الهيئة المجسدة ل " **السيادة الوطنية**".

كانت **أثينا** {صورة ملتقطة بالأقمار الصناعية ل **أثينا** ولميناءَ: "**بيراوس**" (Piraeus) } تسيطر على منطقةِ شبهِ **جزيرة أتيكا** {صورة قمرية صناعية لها} 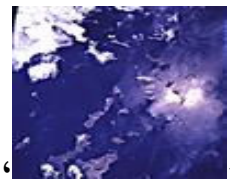 ، المتواجدة إلى الشرق وشمال شرق مدينة: "**إسبارطة**" (Sparta) (أنظر الخريطة)

.

ولم تختلف دوافع مدينة **أثينا** عن مدينة **إسبرطة** من جهة الهواجس الاستعمارية والتوسع في الجوار، سوى في مظهرين:

1) كانت **أثينا** أكبرَ من الناحية الجغرافية، وتتوفر على عدد من السكانِ يفوق عدد سكان **إسبرطة**،

2) لم تكن **أثينا** تفرض العبودية على سكان مستعمراتها، على عكس **إسبرطة**.

ولهذين الاعتبارين الموضوعيين، لم تواجه **أثينا** المأزق السياسي الذي ظلت **إسبارطة** {أنظر الحلقة السابقة} تعاني منه، والمتمثل في السَيْطرَة على **تعداد سكاني كبير** وغاضب يمكن أن يفضي في أحايين كثيرة إلى ثورات عنيفة وعارمة.

2.1) الأزمات السياسية، المستبدون والإصلاحات الاجتماعية

واجهت **اليونان** خلال القرن السابع وبداية القرن السادس قبل الميلاد، تغيرات اجتماعية سريعة مصحوبة باضطرابات سياسية أفضت بالعديد مِنْ البلداتِ اليونانيةِ إلى أن تقع تحت حكم **طغاة مستبدين** متفردين بالحكم.

ولم تكن لفظة، '**مستبدّ**'، وما يصاحبها من قشعريرة واشمئزاز، كما تَبْدو لآذانِنا اليوم، تحمل نفس الشحنة من الكراهية، سواء في:

أ) **بلاد الرافدين**، التي أخرجت مشرعين عظام، من شاكلة: **حمورابي** واضع مجموعة القوانين المعروفة باسمه، أو في:

ب) **اليونان** ألفي سنة بعد ذلك، التي ستنتج ما سيعرف ب **العقلاء التسعة**.

ولظروف النشأة المماثلة، فلن نستغرب أن يحاكي **مستبدو اليونان** نظراءهم **الرافديين**، السابقين عليهم بالتحضر، حال ما نجد في الطاغية: "**كيبسيلوس**" (Cypselus)، الذي يعني اسمه: "**الصدر**"، أو "**السفينة**"، حاكم مدينة **كرانثيا** (Corinth) خلال الفترة (655 ق. م. - 625 ق.م.)

ف "**كيبسيلوس**" استطاع أن يطيح ب**الحكم الأوليجاركي** السابق، بصفته "**رئيس حرب**" (**بوليمارخوس**" (έμαρπολςχο) (polemarch) {اللفظة مركبة من "**بوليموس**" (έπολςμο) وتعني: "الحرب"، و"**أرخوس**" (αρςχο) التي تعني: "الحاكم" أو "القائد"}، فطرْد **الملكِ** وأعداءه معاً، لكن مع السماح للأخيرين بتشييد مستعمراتٍ في شمال غرب اليونان، على ما كان معهوداً من قبل في الحكم الملكي السابق مع المخالفين. {صورة لاحتفال الأثينيين بثورة: "**كيبسيلوس**" 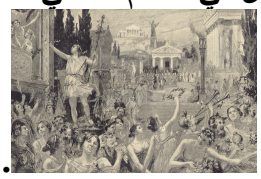 .

وقد شهد عهده ازدهاراً اقتصاديا دامَ حوالي 30 سنةِ (657 - 627 ق.م).

ويحسب له أنه، وعلى خلاف العديد مِنْ **المستبدين** التاليين له، لم يلجأ إلى استعمال الحرّاسَ لحماية نفسه، وماتَ على فراشه موتاً طبيعياً.

وقد علت مكانته في أعين الأثينيين، إلى درجة أن أدرجوا اسمه ضمن العقلاء التسعة لليونان.

لكن، وعلى خلاف سيرة هذا المستبد المستنير، فابنه: "بيرياندر" Periander

585 - 625 ق.م) (، المستبدّ الثاني لمدينة كورانثيا الذي حكم خلال الفترة (627 - 587 قبل الميلاد)، كَانَ أحد أكثر المستبدين اليونانيين الأوائِلِ عنفاً، حيث درس طرائق المستبدين الشرقيين في الهلال الخصيب وتمثلها خير تمثل، إلى أن فاق في الطغيان والاستبداد كل حاكم إغريقي سابق عليه أو لاحق عنه.

قلت:

وهو ما يثبت بالملموس، وعلى خلاف دعاوى بعض الإيديولوجيين الغربيين، بأن الشرقيين كانوا معلمين أفذاذ للإغريق حتى في طرق الاستبداد.

ف "بيرياندر" ، وعلى خلاف والده الذي لم يكن يعزله عن الشعب حواجز أو حجب، ابتنى لنفسه قصراً فوق قلعة كورانثيا أحاطه بالجند، واتخذ لنفسه بلاطاً جمع فيه الشعراء والندماء، على ما عهد ملوك الشرق.

ومن فرط هوسه بالسلطة، فلم يكن يسمح بظهور من يدانيه في الغنى، ولا في الأبهة إلى درجة أن ما أن تظهر آثار النعمة أو الغنى على أحدهم، حتى يجبره على التخلي عن نسبة من ثروته، يستعملها لتقديم قرابين وهدايا للآلهة الوثنية المحلية.

ولخوفه من المؤامرات والمكائد السياسية، فقد ألغى الغذاء الجماعي التقليدي الذي كان مألوفاً لدى السكان والذي توارثوه أبا عن جد عن أسلافهم الدوريين، كما منع تجمع الشبان في الملاعب (الجيمنازيوم) لذات الهواجس الأمنية، ولشغل الناس، فقد عمل على زرع الشقاق والخوف بين أفراد العائلة الوحدة، حتى صار كل واحد منهم يتوجس من الآخرين خيفة إما كيداً أو غدراً.

وقد راودته طوال حكمه، أمنية أثيرة لدى كل المستبدين وهي: أن يصبح الكوراثيون عبيداً له، على غرار رعايا مصر مع فراعنتها.

ولنزقه، فقد قتل زوجته: **ميليسا** في فورة غضب، ثم ندم على فعلته، فسولت له نفسه أن يكفر عن جرمه بجرم أكبر، وهو إجبار كل نساء **كورانثيا** على إحضار فساتينهن وركمها في كومة كبيرة في الساحة العامة، ثم إضرام النار فيها قرباناً للموتى.

وسيقاطعه أحد ابنيه وهو: "**ليكوفرون**" (Lykophron) عندما علم بأنه هو من قتل أمه، إلا أن الوالد الطاغية ضل يحاول إقناعه بتولية سدة الملك من بعده من دون جدوى.

وعندما قبل "**ليكوفرون**" أخيرا أن يتولى الملك بشرط أن يعزل الأب نفسه عن ملك **كورانثيا** ويستقر في جزيرة: "**كوركيرا**" (Corcyra)[1] {الخريطة} 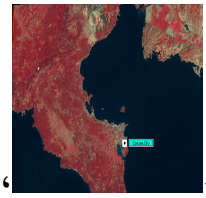 ،

خشي السكان أن يقدم عليهم الطاغية فقتلوا ابنه: **ليكوفرون**"، عل ذلك يثنيه من عزمه!

وسينتقم لموتِ ابنه بإخصاء حوالي 300 من أبناء "**كوركيرا**" الأبرياء، إلا ليوافيه أجله، دون أن يخلفه في الملك وريث، بعد حكم طاغوتي دام أربعين سنة!

قلت:

وقد واجهت مدينة **أثينا** عند هذا المفترق من تاريخها ذات المعاوص السياسية التي عانت منها مدينة **كورانثيا**، حيث حكمتها طبقة من **الأرستقراطيين**، حالت دون حصول الأثرياء والمغتنين الجدد على مناصب سياسية تليق بمستوى ثرواتهم!.

وكان من بوادر الأزمة المستعلنة سحبها في الآفاق، كون النمو المفرط في "**ثروةِ**" بعض مواطني أثينا لم يؤد في المقابل إلى أي تحسنٌ في شروطِ حياة الطبقات الفقيرةِ، مثل المزارعين الصغار، أو من كانوا بدون أرض.

---

[1] كوركيرا، وكيركيرا وهي: كورفو الحديثة، جزيرةٌ في البحرِ الأيوني في شمال غرب اليونان، خارج ساحل إبيروس (Epirus، عرفها الأقدمون تحت اسم "شيريا" (Scheria)، أرض "الفائيسيين" (Phaeacians) الواردة في في ملحمة: "هوميروس" (الكتاب 5). وقد إستعمرَها الكورانثيون سنة 733 قبل الميلاد.

وكنتيجة لهذا التفاوت في توزيع الثروة، حلت ب **أثينا** أزمة سياسية خانقة مع بداية القرن السابع قبل الميلاد.

وهي أزمة سياسية ترتبت عن أزمة اقتصادية كلاسيكية، بمظهريها التقليديين:

أ) **نمو مفرط في عدد السكان** أدى إلى حدوث ضغط على الطبقة الميسورة، مفضيا بدوره إلى حصول اضطرابات اجتماعية.

ب) **عجز المزارعين الذين اعتادوا تزويد المدينةِ بالغذاءِ**، عن مُجَاراة الطلبِ لإشْباع حاجاتِ السكانِ المُتزايدةِ، والتي أصبحت خارج نطاق السّيطرة.

وهو ما أجبر المزارعين في مثل هذه الظروف على بيع أراضِيهم كي يحصلوا على الغذاءِ.

وهي عملية أدت إلى إفلاسهم الفوري.

ولأجل إيجاد مخرج من الأزمةِ، فقد أوكل الأثينيون إلى "**رئيس الحرب**"

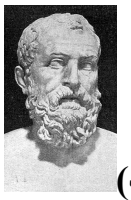

(**بوليمارخس**): "**سولون**" (Solon) (640- 561 قبل الميلاد) في سنة 594 ق.م. أن يقوم بهذه المهمة.

وقد اقترح "**سولون**" (Solon) أربعة إصلاحات للخروج من الأزمة:

أ) **إلغاء كُلّ الديون الزراعية التي أثقلت كاهل المزارعين**،
ب) **تحرير كُلّ العبيد**،
ت) **منع بيع أي أثيني كرق**،
ث) **فتح أبواب الحكم أمام الأغنياء الجدد**، مقللا من سطوة الأرستقراطيين في الاستحواذ على هذه المناصب.

قلت:

من حسن الحظ، أن هذه التنازلات قوت من الاستقلال الاقتصادي للمزارعين الصغار ومتوسطي الحجمِ بالإضافة إلى بَعْض أصنافِ الفلاحين.

وهو ما أدى إلى خلق طبقة من الملاك الصغار[2].

وبالرغم من عدم تمكن إصلاحات **سولون** من إنهاء الأزمة الزراعية، والحسم في النزاعَ الطبقي، إلا أن الأثينيين سيعترفون له بالفضل ويعدونه من بين العقلاء التسعة لليونان، ويثمنون بشكل رئيس تمريره للإصلاحات الدستورية التي أسست ل : **"التيموقراطية"** (timokratia) (Timocracy)، التي تُعَرَّفُ كالتالي:

"هي حالة من الحكم يشارك فيها أصحاب الملكيات وذوي الجاه والشرف في المجتمع".

قلت:

وقد قسم **سولون** المواطنين الأثينيين إلى أربعة أصنافِ بحسب كمية إنتاجِهم الزراعي السنوي كمعيار، بدلاً مِنْ معيار الولادةِ، وأعطاهم حقوقاً سياسية ومسؤولياتَ إقتصادية بحسب انتمائهم إلى إحدى هذه الأصناف الأربعة:

1) صنف **المالكين الكبار** ويطلق عليهم اسم: **"رجال الخمسمائة بوشل**[3]**"** (Pentacosiomedimni): أي المنتجين ل 500 **"بوشل"** في السّنة.

فهؤلاء يُمْكِنُ أنْ يَعْملوا ك **جنرالاتِ في الجيش**.

2) **"الخيالة وأصحاب العربات"** (Hippeis). وقد سموا لطبقتهم الاجتماعية كخيالة أو كقواد عربات حربية؛ وهم الفرسان، الذين يُمْكِنُ أنْ يُجهّزوا أنفسهم وفرساً واحداً للحربِ، وقد قيّموا لإنتاجهم لحوالي: 300 بوشل في السّنة،

3) **"الزيجيتيون"**(Zeygitae) ويمثلون الطبقة الاجتماعية مِنْ سواق الثيران. وهم من يملكون على الأقل زوجاً من ثيران الحرث وممن قيّمَ إنتاجهم في حدود 200 بوشل في السّنة،

---

[2] أنظر:

Simon Hornblower, 1992;" Creation and development of democratic institutions in Ancient Greece» in J .Dunn (ed.), Democracy the unfinished journey. 508 BC to AD 1993, Oxford, Oxford University Press, pp. 3-4.

[3] البوشل مكيال للزرع وغيره وتختلف مقاديره بحسب نوعية المكيل من زرع وخضر وفواكه.

وهؤلاء، يُمْكِنُ أنْ يُجندوا ك "هوبليت " (Hoplites) وهي لفظة يونانية تعني: "جندي مشاة ثقيل"،

4) "الثيتس" (Thetes) وهي الطبقة الأوطأ مِنْ حيث المنزلة الاجتماعية ضمن هذه التراتبية الرباعية للمواطنين الأثينيين. وتمثل المزارعين الأجيرين وغير المالكين للأرض. ولهؤلاء خصصت مهام الجنود خفيفي التسلح، وأدلاء البحّارة.

قلت:

وتعجب أن يتصدر قيادة الجيش المترفون بسبب ما يمتلكون من دثار زائد، وليس عامل القوة الذاتية في المحاربين!

وهو ما يمكن أن نصطلح عليه بعامل: "انتخاب الثروة".

لاحظ أولاً، ضمن هذه التصنيفية الرباعية، أن سولون خص الطبقات الثلاثة الأولى فقط بشغل وظائف عامة.

وقد أقصى نظام سولون مِنْ المواطنةِ:

أ) من لا يملك أرضاً مُنْتِجة،
بَ) النِساء،
ت) الأطفال،
ث) العبيد،
ج) الأجانب المقيمين،
ح) الصُنّاع،
خ) والتجار.

وهو ما يجعل من هذه المواطنة، تكريساً لحكم أقلية لا يتجاوز عدد أفرادها في أحسن أحوالها 20 % من مجموع السكان!

ولاحظ ثانياً أن الميزة الوحيدة لهذه الإصلاحات الدستورية، تمثلت في كون القلة من: المالكين للأرض أو لأصحاب الشرف هم من يحكمون.

وهي حالة سياسية مدانة بنص قرآني محكم ورد في الآية 7 من سورة الحشر:

[ن دولــة بيــن الأغنيــاء منكــمكــي لا يكــو]

وهو إصلاح أو بالأحرى ترقيع فرضته القوى السياسية المتنامية للأغنياء الجدد، الذين انتزعوا من الأرستقراطيين القدماء، حق الصعود والترقي في السلم الاجتماعي واحتلال مواقعَ القيادة السياسيةِ اللائقة بثروتهم المكتسبة.

وهو إنجاز لا يمت بصلة إلى معيار العدل، اللهم من منظور المترفين وحدهم!

2.2) دور العائلات الكبيرةِ

كُسر الإستمرار السياسي لأثينا ببروز 'مستبدين' خلال الحقبة (650-510 ق. م.) استحوذوا على الحكم ومثلوا مصالحَ الأغنياء الجدد.

كَانتْ عائلة الألكمينيد (Alcmaeonids) عائلة غنية جداً وذات أصول قديمة تعود إلى الحقبة الإغريقية الكلاسيكيةِ.

وهي إحدى مفاخرهم.

ويذكر الأثينيون لهذه العائلة كمثلب من مثالبها التي لا تبلى، كونها قتلت غيلة أحد أشراف أثينا، وأحد أبطال الألعاب الأولمبية السابق: "كيلون" (Κύλων) (Cylon) الذي رام أنْ يُصبحَ طاغية أثينا في سنة 631 قبل الميلاد، بمساعدة من صهره: "ثياجنس" (Theagenes) (Θεαγένης) الميغاري المستبد بالحكم على مدينة"ميغارة" (Megara)

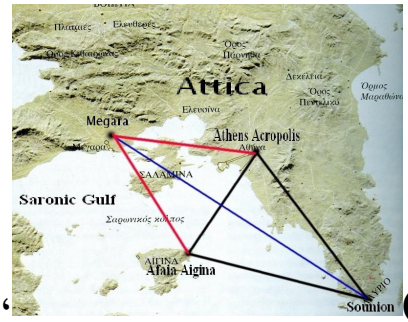

(الخريطة)، الذي أمده بالجند والسلاح.

وكان كاهن دلفي قد نصح كيلون بالاستيلاء على الحكم أثناء احتفالات أثينا بالمعبود "زوس".

ولما أدرك الأثينيون المحتفلين بعيد "زوس"مقصد الثوار، توافدوا على قلعة الأكروبوليس، قادمين من كل فج حتى حاصروهم.

لكن مع مضي الوقت رجع غالب الأثينيين إلى مشاغلهم وأوكلوا للحكام التسعة معالجة الأمر بما يليق به.

في هذه الأثناء استطاع كيلون وأخوه أن يفرا إلى الخارج، بينما ظل أتباعه محاصرين، ينقصهم الزاد والماء ويعانون من الجوع إلى أن بدأ الموت يحصد بعضهم، فأقنعتهم قوات الحكام التسعة لأثينا بمغادرة المعبد، وطمأنوهم بأنهم سيخضعون لمحاكمة عادلة، إن هم غادروا المعبد، وأعطوهم الأمان على حياتهم.

فقبلوا بذلك.

وتقول رواية بأن المعتصمين، في محاولة منهم لضمان سلامتهم، ربطوا حبلاً بصنم المعبد ومثلوا أمام المحكمة، إلا أن الحبل انقطع من تلقاء نفسه، ففسر ذلك الحكام التسعة، وزعيمهم في ذلك: "ميجاكليس" المنتمي لعائلة: "الأكمينيديين" بأن الإلهة تخلت عنهم وأخذوا يرجمونهم بالحجارة حتى الموت[4] .

وبسبب من هذه الخيانةِ الرعناء، ظل الأثينيون يعتقدون بأن عائلة "الأكمينيديين" واقعة تحت لعنة ملوثة تورث في الأجيال التالية، ونفوا أفرادها مِنْ أثينا، لمخالفة "ميجاكليس" وقبيله للقانون الذي يمنع من قتل المستسلمين بعد أخذ عهد الأمان.

اللعنة، التي لم تمنع العائلة من مراكمة الثروة والجاه والقوة معا.

قلت:

هذا على الصعيد المحلي المحض، أما على الواجهة الإقليميةِ، فقد بَدأ اليونانيون عند هذا المفترق من تاريخهم يؤثرون على الأحداث في محيطهم ويتأثرون بها بدورهم.

ويكفينا الإشارة هنا، أنه من دون اليونانيين، الذين اشتغلوا كمرتزقةِ في جيش الفرعون: "أبسماتيك الأول (Psammetichos) (Psamtik I) " (664-610 قبل الميلاد) 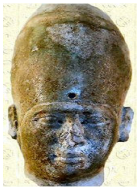 مدينة "سايس" ("صا الحجر" بمحافظة الغربية الحالية) ومؤسس السلالة الفرعونية السّادسة والعشرين، ما كان للأخير أن يطمح في استعادة "الدلتا" مِنْ

[4] هذا ما ورد في تاريخ: "هيرودوتوس" (5: 71) وكذلك عند المؤرخ "تيوسيديد" (1: 126)، وهو ما لا يذره مؤرخون آخرون، الذين يكتفون بالقول بأن أتباع كيلون قتلوا غدراً بعد أن كانوا حصلوا على الأمان.

قبضة الآشوريين قُبَيلَ سنة 655 قبل الميلاد، ولا مصر العليا مِنْ قبضة "الأثيوبيين" ولا في أن ينجح في إعادة توحيد البلادِ مرةً أخرى، كما حدث غالباً في التأريخ المصري، وفي تنمية تجارة مصر مع المدن الفينيقية.

كما وأن وريثه وخلفه الفرعون: نخاو الثّاني (610 ق.م - 595 ق.م.)

(Ouhemibrê-Nékaou II)، ما كان ليطوّرَ الأسطولَ المصريَ لولا استعماله للبحارة اليونانيين والفينيقيين، والذي سيحاول بمساعدتهم، وإن من دون جدوى، استعادة مدينة "حران" من "الميديين" والبابليين.

وقد عمل نخاو على إعادة حفر القناة التى كانت تصل بين النيل والبحر الأحمر (قناة سيزوستريس)، بغرض توسيع تجارة مصر الخارجية، وأرسل بعثة من الفينيقيين للدوران حول أفريقيا، استغرقت ثلاث سنوات، ونجحت فى ذلك {أنظر الخريطة}.

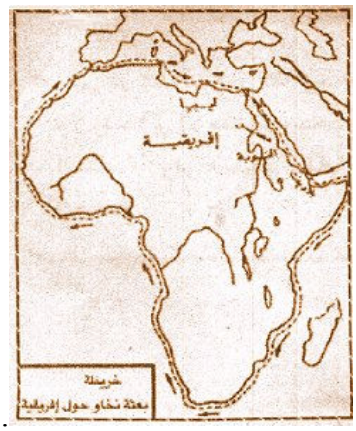

قلت:

وهي غيوم محملة بنذر الشؤم بدأت تتجمع متلبدة في الأفق، لا تخطئك النبأ بما هو آت في المستقبل العاجل أو الآجل، والذي لا راد له كقدر مقدور، بحسب سنن الاستخلاف الحضارية، حيث ستنهار هذه الأسرة ويتم إزالتها من الوجود من طرف الفرس الذين سيغزون

البلاد سنة 525 ق.م ويجعلوا من مصر جزءا تابعاً لا يتجزأ من إمبراطوريتهم المترامية الأطراف.

وهو إلى هذه الفترة الزمنية، آخر فصل من فصول تدهور أحوال مصر الاجتماعية، والسياسية، والثقافية، والاقتصادية تعرضت فيه البلاد خلاله للتأثيرات المدمرة للنفوذ الأجنبى، وحكمها على التوالي غرباء عنها من: ليبيين، ونوبيين، وآشوريين، وأخيراً الفرس، الذين سيخلفهم بدورهم الإغريق في زمن لاحق، ثم الرومان من بعدهم، ثم المسلمون بعد ذلك.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

انتهى وتليه الحلقة العشرون

نظام الحكم الأثيني (II): قواعد الاستبداد